

دراسات الأدب المعاصر، السنة الثامنة، صيف ١٣٩٥، العدد الثلاثون: صص ١٢٣-١٤٠

الطبيعة بين الأدب القديم والحديث

محبوبه بادريستاني*

تاريخ الوصول: ٩٤/١٢/١٨

ليلا حسيني**

تاريخ القبول: ٩٥/٣/٢٨

الملخص

تقوم هذه المقالة إلى الموازنة بين امرئ القيس وابن حمديس الصقلي في وصف الطبيعة بهدف معرفة المظاهر التي قام الشعراء في الأدب الجاهلي والأدب الأندلسي بوصفها من الطبيعة والسؤال الأساسي فيها هو ما هي المظاهر المشرقة التي قام بوصفها امرؤ القيس وابن حمديس في الطبيعة رغم أنهما يعيشان في العصرين المختلفين؟ وعندنا فرضية يمكننا الوصول إلى الإجابة وهي الطبيعة التي قام بوصفها امرؤ القيس هي المطر والسيول والأزهار والليل وهذا النوع من الطبيعة ملائم بالبيئة التي كان يعيش امرؤ القيس فيها وابن حمديس قام بوصف الزهريات الموجودة في بلاده والمائيات كنموذجين؛ يمكن القول أن كل شاعر قام بوصف مشاهداته في بيئته.

الكلمات الدلالية: شعر الطبيعة، الطبيعة، امرؤ القيس، ابن حمديس.

mahboobeh_58b@yahoo.com

l7.hoseynii@gmail.com

* طالبة الدكتوراه بجامعة الخوارزمي، طهران، إيران.

** طالبة الدكتوراه بجامعة الخوارزمي، طهران، إيران.

الكاتبة المسؤولة: محبوبه بادريستاني

المقدمة

إنَّ اهتمام الشعراء العرب بالطبيعة منذ القديم أى العصر الجاهلى إلى العصر الحديث، يدفع الباحث إلى دراسة مظاهر الطبيعة عندهم، كما أننا من خلال الموازنة والدراسة فى مظاهر الطبيعة المشرقة بين *امرئ القيس* و*ابن حمديس* نريد أن نعرف هذه المشاهد، والمنهج المستخدم فى هذه الدراسة هو المنهج الوصفى - التحليلى بالإتيان الأنموذج الشعرية من ديوان *امرئ القيس* و*ابن حمديس* لدراسة كيفية تطرق الشعارين بالطبيعة. إنَّ الطبيعة من المصطلحات التى ترد فى عالم الجمال، لكنه مصطلح يحتاج إلى المادة التعريفية به، فالمعنى الأسمى للطبيعة هو كل ما خلق الله يدخل فى ذلك الإنسان نفسه، وما خلق الله يشمل السماوات والأرض والجبال، والأزهار والأشجار، والدواب والطيور والحشرات والأسماك والزواحف... فالطبيعة تعنى شيئاً لا حدود له فى إدراك الكون، يحاول العلماء بتخصصاتهم المختلفة أن يشرحوا قوانينها ونظمها (بيومى، ١٩٩٦م: ٩١).

منذ القدم وصف الشاعر العربى الطبيعة وأحبها، ولكنها لم تتميز حين ذاك كفن شعري قائم بذاته، ومع هذا فقد بدأ على وصفهم للطبيعة الشقف بها وبظواهرها، فوصف الشاعر الليل وشبهه بموج البحر، وصف طولها وأنه لا يتزحزح وكأن نجومه شدت بحبال متينة إلى متينة ووصف البرق والغيث وبدأت فتنة به، والوقوف على الأطلال وهو كمظهر من مظاهر وصف الطبيعة الذى يتجلى فيه البث والشكوى والتجاوب مع البيئة الطبيعية (على حسن، ١٤٠٩ق: ١٦٠). إذن شعر الطبيعة هو الشعر الذى يتخذ من عناصر الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة مادته وموضوعاته.

أهمية البحث والهدف منه

تأتى أهمية البحث من أنه يبحث فى المفارقة والمشابهة التى كانت بين الشعارين *امرئ القيس* و*ابن حمديس* فى العصرين المختلفين و يبين تلك المفارقات والمشابهات من خلال أشعارهما.

أما الهدف من البحث فهو تحديد المظاهر المشرقة التى قام بوصفها *امرؤ القيس* و*ابن حمديس* فى الطبيعة رغم أنهما يعيشان فى العصرين المختلفين.

منهج البحث

يقوم البحث على المنهج الوصفي والتحليلي فمن خلال دراسة الأشعار وتحليلها نصل إلى الإجابة عن السؤال الأساس.

الدراسات السابقة

كثير من الباحثين في الأدب العربي قاموا بالدراسات عن الطبيعة ومظاهرها؛ كما وجدنا من خلال الدراسات السابقة حول الطبيعة الأندلسية مقالة تحت عنوان «الطبيعة الأندلسية وأثرها في استثمار اللون الشعري» من م. لؤى صيهود فواز الذى نشرها فى جامعة ديالى، كلية التربية الرياضية، العدد الثالث والسبعون ٢٠١٢، إنه قام بدراسة مضمون الشعر الأندلسى ودور الطبيعة الأندلسية وأثرها فى شعر الشعراء. ثم حصلنا على مقالة أخرى فى مجلة «أبحاث البصرة» (العلوم الإنسانية) المجلد ٣٦، العدد ٢، السنة ٢٠١١ مقالة تحت عنوان «وصف الطبيعة فى الشعر الأندلسى؛ قراءة وعرض» من أ.م.د. ستار جبار رزيح.

وقد تطرق بعض الطلاب فى جامعة ام درمان الإسلامية كلية التربية- قسم اللغة العربية شعبة الدراسات الأدبية والنقدية إلى بحثٍ لنيل درجة الماجستير تحت عنوان «وصف الأزهار فى الشعر العربى حتى نهاية القرن السابع الهجرى» وفى هذه الرسالة قد درس الباحث شعر ابن حمديس من حيث صورة لطبيعة الأندلس وأيضاً مقالة تحت عنوان «المطر وتجلياته فى شعر امرئ القيس وعبيد ابن الأبرص» انها فيها قد درس على معدى عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى فسا ومحبوبة محمدزاده شيرازى ظاهرة المطر فى شعر الشعراء. والمقالة الأخرى من على مطشر نعيمة وخالد عبدالكاظم عنارى من كلية التربية- جامعة البصرة تحت عنوان «صورة البحر ودلالاتها فى شعر ابن حمديس الصقلّى» اللذان يدرسان صورة البحر كظاهرة طبيعية فى شعر ابن حمديس. أما الدراسة هذه التى قمنا بها بصورة الموازنة بين الشعراء امرئ القيس وابن حمديس فى العصرين المختلفين فلم يقدّم إليها أحد فهذه الدراسة يفتح لنا باباً جديداً من هذه الناحية.

امرؤ القيس والطبيعة

كان شاعر الطبيعة، يتأملها ويبتثها آلامه، وينسى عندها أشجانه ويهيم بها ويفتن بآيات الجمال فيها، ثم يصورها كما تمثلتها نفسه، ها هي ذى أطلال تثير شجونه، وتلك ناقته وبعيره، وفرسه تمتلك عليه فؤاده و تلك الصحراء تستهويه ببرقها ومطرها وحيوانها ورمالها.

فقد عاش العربي في جزيرة واسعة تختلف عليها الرمال والأنواء والرياح وتشتد عليه الطبيعة وتقسو وكان يتنقل في سبيل العيش فيجتاز مسافات كبيرة ويخترق صحارى شاسعة وهناك صوراً رسمتها أخيلتهم لكل شئ وقع تحت بصرهم (سيد نوفل، ١٩٩٣: ٥). فالطبيعة طبعت الشاعر الجاهلي بطابعها ووسمته فالرجل الذي يعيش في الصحراء يألف منظرها ويأنس كواسرها وقد يعشق بعض حيواناتها فيجد منها أصدقاءه يستدينها بصورته الذي يشبه صوتها ويتألفها بلونه الذي يقارب لونها.

الوصف في العصر الجاهلي

لا شك أن الشاعر يستمد مواضيعه من طبيعة بيئته يتأثر بها ويؤثر فيها، محاولاً أبدأً أن يعبر عن تأثيره. أضف إلى ذلك أن البدائي بطبيعة نفسية تميل به نزعة التقليد إلى نقل ما يراه حتى كأن شعره لوحات مقولة بدقة وبراعة عن البيئة التي يعيشها، فظهرت في الشعر الجاهلي معالم الحياة الجاهلية فهو يضعنا وجهاً لوجه أمام عالمها كأننا نعيش في قلبها ويكاد الجاهلي لا يدع حيواناً أو مشهد دون أن يصوره. لقد ذكر الفرس والأوابد والحمير والوحشية والعقاب والذئب فضلاً عن الصقر والقطاة كما أنه تصدى لوصف الحياة والأفاعى. أما الطبيعة الساكنة فقد عرض لها بقسم وافر من شعره، خاصة تلك المظاهر التي كان لها تأثير مباشر في حياته كالطلل والصحراء والليل والمطر فضلاً عن الرياض. كما تصدى الجاهلي إلى وصف الحيوان رفيق سفر وشركاً في الكفاح ضد مؤثرات الطبيعة وعواملها وكانت البقرة الوحشية غاية مباشرة (موافى، ١٩٧٥م: ١٠). ويقول شوقي ضيف: «وكانوا يصفون القضا والجواد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونواحه وما يهيم فيهم شوق وشجي وكانوا يذكرون الغراب كثيراً ويتشاءمون به» (ضيف، ١٩٦٠م: ٢١٦).

وصف المطر

وضع شعراء العرب في وصف المطر وتشبيهاته أسساً وألماً بذكره في أشعارهم إماماً واسعاً ومن هؤلاء الشعراء /مرؤ القيس، فامرؤ القيس ذلك الشاعر المبدع فقد أقام بنياناً قوياً لصورة المطر، وأكثر من وصفه في ديوانه وتغنى بصفاته حتى عدّه النقاد والشعراء «من أجود الذين وصفوا المطر» (العسكري، ١٣٥٣ق: ٣-٤؛ ابن سلام، ١٩٧٤م: ٩٤).

لقد ظهر حب /امرئ القيس للطبيعة من خلال معلقته، فقد ذكر فيها أماكن كثيرة هي تلك الأماكن التي طوف فيها وعرفها فغدت معشوقاته جزءاً منها، وانصهرت الطبيعة في معلقته حساً وشعوراً مع صراعه النفسى فغدت كلها تعبر عن موقف موحد يقفه الشاعر تجاه الحياة والكون، فهو عندما يصف المطر والسيل إنما يصف الصراع بين الحياة المتمثلة بالمطر الباعثة على الخصب و النماء، والموت المتمثل بالسيل المدمر الجارف الذى لا يبقى على حيوان ولا شجر. وكأنه يقتلع الحياة اقتلاعاً. وهو إذا ما يمسك ريشته ويرسم لنا منظر البرق والمطر إنما يعبر عن طبيعة واقعية خبرها وعاش فيها وتملؤها جيداً:

أحار ترى برقاً كأن وميضه	كلمع اليدين فى حبى مكلكل
يضىء سناه أو مصابيح راهب	أهان السليط بالذبال المفتل
قعدت له وصحبتى بين حامر	وبعد اكام بعدما متأمل
وأضحى يسح الماء من كل فيقة	يكب على الأدقان دوح الكنهبل

لقد اعتمدت المعلقة النزعة الحسية والشعورية فى تناولها الطبيعة والمرأة، فهو يعبر عن موقفه النفسى إزاء العالم الخارجى، فهو مبهور بقدر ما هو ملتذ بهذه الظواهر فهو يريد أن يمتلك هذا العالم فى نفسه ليستطيع بعدئذ تجسيده فى شعره، وهو يعرض لنا الطبيعة كما هى دون تعديل أو تحوير من الخيال، بل يبدو وهو يصفها وكأنها بالنسبة إليه تمثل إلهاً مزدوجاً من الخير والشر، فى الوقت الذى يصف لنا كل ما يمكن أن تعطيه هذه الطبيعة من خير عميم يعود ليصوّرها مزججة عاتية تكاد تقضى على الحياة فيها، وهو إذ يصور لنا الطبيعة فى معلقته يلتصق بالواقع فيذكر لنا أسماء الأماكن، ولكنه لا يجمد على الواقع الحر فى تصويره للطبيعة بل يصفها منعكسة فى زوايا نفسه.

ومرّ على القنان من نفيانه	فانزل منه العصم من كل موئل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة	ولا أطما إلّا مشيداً بجندل

كأن أبانا فى أفانين ودقة
 كأن ذرى رأس المجيمر غدوة
 كأن سباعاً فيه غرقى عشية
 كبير أناس فى بجاد مزمل
 من السيل والإغشاء فلكة مغزل
 بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

فقد أعطى للأشياء العظيمة (ذرى رأس المجيمر، السباع) وهى غرقى تشبيهات لأشياء صغيرة (فلكة مغزل، أنابيش عنصل) دلالة على صغر الأشياء العظيمة تجاه عظمة الطبيعة وقوتها وحركتها الدائبة. وما هذا الإحساس الفنى العظيم فى نفسه إلا موازنة بين العظمة فى الحياة وسرعة الزوال فى الموت، ولكن الحياة انتصرت فى النهاية:

وألقى بصحراء الغبيط بعاعه
 نزل اليمانى ذى العباب المحمل
 فقد تصرفت المياه فى حزن من الأرض وتخلصت الحيوانات وانباتات من خطرهما،
 حاملة معها ما أفنته منها. ولكن الحياة باقية متجددة دائماً وسرعان ما عادت إلى نشوتها الأولى وكأن خطر السيل (الموت): لم يتهددها:

كأن مكاى الجواء غدية
 صبحن سلافاً من رحيق مففل
 لقد عادت دورة الحياة من جديد وانطلقت الطيور سعيدة منتشية بالصحو بعد المطر
 وكأنها سكرى لشدة سعادتها.

وقد اعطى /مرؤ القيس للمكان والزمان وجوداً فنياً يعادل وجودهما الواقعى فى تصويره لطير المكاى. فهذه الطيور النجدية تبكر فى الصباح تشنف الأذان باستقبالها لحياة يوم جديد. كما أعطت المبالغة الفينة فى تصوير العصم وفزعها من جبروت السيل وقت العشاء تجسيداً لهذا الخوف، فقد أدركت الوعول المتشبثة بالحياة أن خطر الموت يتهددها فنزلت من جبل القنان لعلها تجد سبيلاً للخلاص من السيل فهى فى النهار تصارع من أجل النجاة ولكنها لم تستطع الإستمرار فى هذا الصراع عند العشية فيغرقها السيل. وإذا كان السيل ينعكس فى نفس الشاعر ممثلاً للموت وجلاله بحيث يخيف السباع ويكاد أن يغرق الجبال فإن الغيث يمثل الحياة وما فيها من خير وخصب. وقد يكون الغيث السيل وكأن الشاعر يقول لو لا الحياة لما وجد الموت. فالحياة دائماً متقدمة والموت تابع لها، فالحياة هى الأصل والموت تابع لهذا الأصل. ندرك من كل ذلك أن الوحدة الموضوعية متوفرة فى المعلقة فهى تمثل موقف الشاعر من الصراع الأزلى فى نفس كل إنسان بين الحياة والموت، وليست قطعاً متناثرة تتناول موضوعات مختلفة لا رابط بينها.

الحيوانات والمطر

إنّ المطر هو الوجه الساكن من الطبيعة الذى تغنى به الشعراء على امتداد العصور واختلاف فترات الأدبية والسياسية وهناك وجه آخر للطبيعة ترّبع على عرش الذاكرة الأدبية، وخط معالمه فى الإنتاج الشعري، هذا الوجه، حتى نابض يعيش مع الإنسان ويتفاعل معه منذ بدايته. إنه هو الحيوان، هذا الكائن الحيّ الذى ارتبط مع العربى فى صحرائه برباط قوى أساسه تبادل المنفعة، وإن كان اعتماد أحدهما على الآخر يفوق اعتماد الثاني. لذلك أحب الإنسان العربى الحيوان، وانساب وصفه على لسانه انسياب قطرات الطر التى عشقها. وحين صور الشعراء الحيوان، وجسّموا معاناته مع الطبيعة الساكنة المتمثلة فى ظاهرة المطر، لم يقصدوا فقط بيان مدى التفاعل بين وجهى الطبيعة المختلفين، ولكن أسقطوا معاناتهم فى هذه الحياة عليها ليرمزوا إلى مشاعر كثيرة تجتاح نفوسهم. وهنا نذكر بعض النماذج فى هذا الموضوع من أبيات الشاعر/امرؤ القيس.

*امرؤ/القيس هو الذى يشبه سرعة فرسه وانطلاقه خلف ثور الوحش بغيث العشى الغزير
الأقهب الذى يميل لونه إلى الكدره مع البياض ونعته أيضاً بالمتودق، والمتودق من الودق
وهو الشديد من المطر، ليوحد بينهما فى السرعة والإنطلاق:*

وأدر كهن ثانياً من عنانه
فصاد لنا ثوراً وعيراً وخاضباً
كغيث العشى الأقهب المتودق
عداءً ولم ينضح بماءٍ فيعرق
(امرؤ القيس، ١٩٨٤م: ١٧٤)

شقائق النعمان

جاء فى محيط بأنه مفردة شقيق وأنه من أسماء الجنس وهو نوعان: كل واحد منهما أحمر الزهر مقبع بنقط سوداء كبيرة غير أن زهر الواحد أرق من الآخر (ديوان طرفة بن العبد، ١٩٩٥م: ٦٦) وفى نهاية الأرب أنها سميت بالشقائق لحمرتها، تشبيهاً لها بشقيقة البرق، والنعمان أسم والدم، وشقائقه قطعه، فشبهه حملاتها بحمرة الدم ويقال إنما اضيفت الشقائق إلى النعمان لأنه حمى أرضاً كثر فيها الزهر.

*امرؤ/القيس يصف نساء نواعم تشق اسنانهن بياض تفى، يرتدى ثياباً مصبوغة بلون
الزعفران وأخرى حمراء بلون الشقائق قائلاً:*

نواعم تجلو عن متون نقيّة

عبيرا وريطاً جاسداً وشقائقا

(امرؤ القيس، ٢٠٠٠: ٨١)

ابن حمديس والطبيعة

إذا كانت الطبيعة بمعطياتها الجديدة من رياض وحدائق ونواعير وبرك أثرت في الشاعر العباسي وألهمته فأتى بالمعاني الجديدة والأساليب الرقيقة السهلة الرشيقة فالشاعر الأندلسي فاق أخيه في المشرق تأثراً بالطبيعة وتنوع في الموضوعات وتوسيع فكان أكثر براعةً وابتكاراً ودقةً وتصويراً. ومرجع ذلك طبيعة الأندلس هذه الطبيعة الرائعة الخلافة التي عبرت فيها الأرض عم نفسها أجمل تعبير، بما أخرجته على سطحها ونثرته في شتى أرجائها من طيب التربة وخصب الجناب، ومن الأنهار الغزار والعيون العذاب ومن البحر والرعد والسهل ومن الحقول والبساتين الحدائق والرياض، ومن الاعتدال الغالب فيها على الهواء والجو والنسيم وعلى الربيع والخريف والمشتى و المصيف ومن المدن الحصينة والقلاع المنيعة ثم من ابيضاض ألوان الإنسان ونبل الأذهان وشهامة الطباع فهذه البقعة الكريمة من الأرض تأسر الطرف وتستهوئ الأفتدة وتثير المشاعر والعواطف والخيال فكان لها الأثر القوي في رهافة حسهم وصفا أخيلتهم، فمن كل هذه المحاسن التي حبت بها الطبيعة بلاد الأندلس هي المصدر الأول، استلهم الشعراء واستمدوا منه الفيض الزاخر من أغاني الطبيعة (عتيق، لا تا: ٢٩١).

فقد كان وصف الطبيعة ابتداء نوعاً من الاحتذاء لبعض أشعار المشاركة لكن الأندلسيين تميزوا بالإكثار من وصف الأزهار ولم يقتصر هذا الميل الحضري للأزهار بل شمل الرسائل النثرية كما نظموا مقطوعات قصيرة في صفوف الأزهار بعضها يمثل (بطائق المهاوة) بين الأصدقاء وليس لديهم غاية سوى وطلب الصورة المبتكرة (عباس، ١٩٦٢م: ١٩٧، ١٩٣). فالبيئة هي من أعظم العوامل المؤثرة في الأدب.

الوصف في العصر الأندلسي

يجمع المؤرخون على أن الأندلس كانت بلاداً خضراء كثيرة الخصب والمياه تشبه دوحة غناء مترامية الأطراف وكما أن الخصب يتبع الغنى فإن الغنى يتيح الأزهار. ونحن

نعلم أن الوصف هو أسلوب من أساليب الشعر الترفي الذي لا يترزق فيه الشاعر، كما إنه لا يدافع به عن رأى أو جهة نظر بل يتروض بتقليد الطبيعة ويلهو بتصويرها ولقد كان طبيعياً أن ينبرى أولئك الشعراء بوصف متعتهم وما يحيط بهم من رياض وبساتين ومجالس لهو وما أشبه ذلك (الحاوي، ١٩٨٧م: ٦-٨).

وساعدت الطبيعة الفاتنة على نضوج الشعر وحلاوته وكان لمجالس الأُنس والبهجة الأثر الكبير فى تنوع أغراض الشعر وخاصة الوصف. فوصف الشعراء الطبيعة الفاتنة كما وصفوا الحدائق والقصور والأبنية وما بها من صور وأشكال وتمائيل وبرك، ووصفوا مجالس الشرب ووصفوا الشموع والكنائس والأديرة وأكثرها من وصف الأساطيل البحرية، وحتى ألوان الحياة العامة وما فيها من ظواهر دقيقة وحشرات وبراغيث إلى غير ذلك من أغراض الوصف المتعددة الجوانب المترامية الأطراف (الشكعة، ١٩٨٣م: ٢٤٧).

لقد استحوذت الطبيعة على كيان/بن حمديس، فقد كانت تحيطه كغيره من الشعراء من كل جانب برياضها الغناء ومناظرها، فكثيراً ما تقع عيناه على البهجة والتناسق، وتطالعه الخضرة والمياه العذبة، كما كان يعطره أريج الأزهار والورود، تشمله نسيمات الحقول والمروج، لذا فقد رأينا الطبيعة فى مدحه.

وصف الأزهار فى شعر ابن حمديس

كانت الطبيعة اهم ما جذب انظار الوصافين، وأكثر الاندلسيون فى وصف الأزهار، كما فعل شعراء الطبيعة فى حلب، فوصفوا الورود والنرجس والشقائق والنيلوفر، والياسمين والقرنفل وغيرها مما وقعت عليه عيونهم (ن.م: ٢٧٧). فنأتى على موصوفات/بن حمديس من الطبيعة الصامتة كنماذج:

الزهرات

إن/بن حمديس ينظر إلى الشقائق متأملاً وعندما رأى الندى يتساقط بين أوراقها

يقول:

جرى دَمْعُهُ منهنّ فى أعين الزّهرِ
تُبَلِّبُهَا الأرواحُ فى القصبِ الخضرِ

نظرتُ إلى حَسَنِ الرِّياضِ وغيَمُها
فلم تَرَ عَيْنِي بينها كَشَقائِقِ

كما مَشَطَتْ غَيْدُ القِيانِ شعورَها وقامت لرقصٍ في غلائلها الحُمر
(ابن حمديس، ١٩٢: ١٩٦٠)

فالشاعر في هذه الأبيات يشبهه زهرات الشقائق لحظة سقوط الماء عليها بالقيان اللائي
يمشطن شعورهن، ثم يرقصن في غلائل حمراء. كما يصور الندى الذي يجرى على
الأوراق بالدموع التي تجرى على الخد.

الأقحوان

للأقحوان أنواع كثيرة، الواحدة أقحوانة، ويقال أقحوان وقُحوان وأقاح وأقاحين، ويقال
أقحوانين، وقَيِّد منها سبعة وهي أكثر من هذا.
جمعت أنواعها من طريق شبه الزهر وتقاربها في القوي وإن اختلف شكل الورق.
واختلف فيه المتأخرون، وبالجملة هو نوع من البابونج عند البعض، وعند البعض الببلييه،
وعند أئمة الرواه البابونج بعينه.

جاء ذكر الأقحوان في ديوان /ابن حمديس مرتباً بالغزل في معظم مواقعه. وتعدد
ذكره بين الأفراد والجمع والتعريف في التنكير، وكان الشاعر يوظفه توظيفاً جمالياً خاصاً
بالمرأة وخاصة أن الشعراء يشبهون شفاهاها بالأقحوان يقول /ابن حمديس:

وما روضةً حىّ ثرى أقحوانها يُضاحكُها في الغيم سنّ من الضحّ
ويقول متغزلاً:

تمشى وسُكّر التيه في عطفها يُميلُ منها باعتدالِ القوامِ
يا من رأى في عُصن روضة يُسمعُ منها للأقاحي كلام

(ن.م: ٤٥٩)

فالشاعر يتغزل ويشبه الفتاة بالأقاحي.

الحديقة

حدق: حدق به الشيء وأحدق: استدار، وكل شئ استدار بشئ وأحاط به، فقد أحدق به،
ونقول عليه شامة سوداء قد أحدق بها بياض. والحديقة من الرياض: كل أرض استدارت
وأحدق بها حاجز أو أرض مرتفعة، وقيل الحديقة كل أرض ذات شجر مثمر ونخل. وقيل

الحديقة البستان، وخص بعضهم به الجنة من النخل والعنب. وقيل الحديقة: حفرة تكون في الوادي تحبس الماء. وكل وطئ يحبس الماء في الوادي وإن لم يكن الماء في بطنه فهو حديقة.

وقد استخدم/بن حمديس هذه اللفظة جمعا ومفردا في بضعة عشر موقعا بعضها استخداما حقيقيا والآخر مجازيا. يقول:

يُريك رؤوساً منه في جسم حيةٍ سَعَت من حياةٍ في حدائقه الخضرِ
(م.س: ١٨٧)

ويقول مستخدما اللفظة على التشبيه:

حديقةٌ نورٍ دامعِ العينِ ضاحكٍ كنشوانِ ذى جيدٍ من السكرِ مائلِ
(م.ن: ٣٩٥)

الرَّيحَان

نبات ذو رائحة جميلة عطرها فواح، وخضرتها دائمة عبقت بأريجها قصائد/بن حمديس حتى ملأ شذاها ألفاظه وديوانه، تلك البيئة الأخاذة اختلفت مواقعها في أغراض الشاعر وموضوعاته، إلا أنها كثيرة الورد في الوصف والغزل والمدح وشرب الخمرة ومجالسها التي جاء وصف الطبيعة متمماً لصورتها، فكان الريحان وغيره من الأزهار تألق فرحاً وسروراً لفرح الشاعر وسروره، بل وتشاركه اللذة فتصطهج متراقصة بأغصانها وقد ملأ عبيرها الأنفاس. ومن جميل الصور التي جاءت الريحانة لتزيدها جمالاً قول الشاعر:

وَرَيْحَانَةٌ أُمَّهَا كَرْمَةٌ تَنْفَسُ فِي كَفِّ غُصْنِ رَطْيَبِ
مُعْتَقَةٌ فِي يَدَى رَاهِبٍ عَلَى دَنْهَا خَتْمُهُ بِالصَّلِيبِ

(م.س: ١٢٥)

حيث شبه الشاعر الخمرة برائححتها ونشوتها بالريحانة ذات الرائحة العطرة. فالشاعر يربط بين ما تحدثه نشوة الخمرة في نفسه وبين رائحة الريحانة الزكية التي عبق بها أنف الشاعر. كما أن الشاعر يشبه الريحانة بالفتاة الجميلة والكرمة هي أمها وهي تنفس محمولة على أيدي قيان يحركها كما تتحرك الأغصان الغضة. وبالتالي فالشاعر يولد هذه الدلالة وهذه الصورة وهو يتلذذ بشرب الخمر في مجلس سمر.

لقد جاء ذكر الريحان في ديوان /بن حمديس مقروناً بقصائد المدح والخمر والغزل ولا يذكر الشاعر في غير هذه المواقع ومن ذلك قوله:

وفى كَبَدِي جُرْحُ لِحْظِ عَلِيلِ
وريحانة أمها كرمة
مُعْتَقَّةٌ فِي يَدِي رَاهِبِ
وفى عَضُدِي عَضُّ ثَغْرِ شَنِيبِ
تَنْفَسٌ فِي كَفِّ غُصْنِ رَطِيبِ
على دَنِّهَا خَتْمُهُ بِالصَّلِيبِ
(م.س: ١٢)

الزَّهْرُ

زهر: الزَّهْرَةُ: نور كل نبات، والجمع زَهْرٌ، وخص بعضهم به الأبيض، وزهرُ النبات: نوره. كذلك الزهرة، بالتحريك، وقال الزهرةُ البياض عن يعقوب، ويُقال أزهَرُ بين الزهرة، وهو بياض عتق قال شمر: الأزهَرُ من الرجال الأبيض العتيق البياض، النير الحسن وهو أحسن البياض كأن له بريقاً ونوراً.

يزهر كما يزهرُ النجم والسراج، /بن الأعرابي: النور الأبيض والزهر الأصغر، وذلك لأنه يبيض ثم يصغر، والجمع أزهار وأزاهير جمع الجمع، وقد أزهَرُ الشجر والنبات. وقال /بوحنيفة: أزهَرُ النبات، بالألف، إذا نور وظهر زهره، وزهيرَ بغير ألف، إذا حَسُنَ. وأزهار النبات، كالزهر، قال /بن سيدة: وجعله ابن جنى رباعياً، وشجرة مزهرة ونبات مزهر، والزاهر: الحسن من النبات (ابن منظور، لاتا: ٩٨).

نستخلص من هذه المعاني أن الزهر يعنى الحياة والحسن والبهجة والجمال. لذا فقد وظّفه الشاعر في ديوانه توظيفاً جميلاً. فذكر بمفرده وجمعه، وذكره بالتنكير تارة والتعريف تارة أخرى. ومن ذلك قول /بن حمديس في قصيدة مدح:

ذو سجايا فى المعالى خلقت
وأناة أرسيت فى خلق
للوغى والسلم من بأس وجود
كنظير الزهر فى الروض الموجود
(ابن حمديس: ١٥٦)

فالشاعر يشبه صفات الممدوح بالزهر فى الروض. ويقول فى قصيدة يمدح فيها/حمد بن عبد العزيز بن خراسان:

والصبحُ يلقطُ من جَمَانِ نجومه
ما كان فى الآفاقِ ذا تبيد

زُهرٌ خَبَتْ أنوارُها فكأَنَّها
كَأزاهرِ النَّوارِ تَقَطُّفُها مَها
سُرُجُ المَشاكي عولجتِ بِخُمود
من كلِّ مَخضِرِ البقاعِ مَجُود
(م.س: ١٥٦)

فهو يستخدم الأزاهير ليدل به على الأزهار وأريجها تارة ويستخدمها مرة أخرى ليدل بها على حسناوات النساء من الراقصات والقيان والساقيات الخمر لهم في المجلس. ومن الصور الجميلة التي رسمها/بن حمديس للزهر، تلك التي شبه فيها تضحيات أهل سرقوسة (مدينة المغتصبة) وقتالهم ودمائهم التي أريق دفاعاً عنها. بالزهور التي تهيو للثمر يعنى أن تضحياتهم هذه ودماءهم المراقبة تمهد وتبشر بقدم النصر يقول:

رعى وَرَقُ البَيضِ الذى زَهرُهُ دَمٌ
جَبابِرَةٌ فى الرَوعِ تَعُدو جِياذُهُم
بَهم ورَقاً عن زَهرَةِ الرَوضِ يَبْتَسِمُ
بَهم فوَقَ ما سَحَّ الوَشِيجُ المَقُومُ
(م.س: ٤١٢)

وقد أبدع فى ربطه بين الزهور التي تشرئب للتفتح لتخرج الثمار وبين أهل سرقوسة وتضحياتهم التي تقدم للنصر وهذا توكيد وابتكار جديد فى توظيف الزهور التي ترمز أصلاً إلى السرور والإرتياح الفرح.

السَّوسَن

السَّوسَن: نبت، أعجمى معرَّب، وهو معروف وأنواعه كثيرة، فمنه الأبيض والأحمر، والأصفر، والأزرق والأسمانجوفى، ومنه برى وبستانى ومائى وجبلى ورملى. لم يرد ذكر السوسن فى ديوان/بن حمديس كثيراً، فلم يتجاوز مرتين، إلا أنها حملت فى طياتها دلالات جميلة، فقد وظَّفها الشاعر توظيفاً رائعاً يقول فى قصيدة مدح يذكر فيها شجاعة الممدوح وقوته وسطوته على أعدائه. ويقول:

بَحْرٌ إذا ما القَرْنُ رامَ عَبورَهُ
عَطِبَتِ به مُهَجُّ الجِبابِرَةِ الألى
لَم يَلِقَ فىهِ إلى السَّلَامَةِ مَعْبَرا
رَسبت بلجَتَهُ النَفوسُ لو طَفَّت
بَصَروا بِكسرى فى الزمانِ وَقَيصِرا
وَرَدَ النَجِيعَ وَسَوسَنُ جَنباتِهِ
لَحَسبَتُهُ قَبْلَ القِيامَةِ مَحشَرا
ثَمَّ اسْتَقَلَّ بِهِنَّ وَرَدًا أَحْمَرا
(ن.م: ٢٣٥)

الغَابَةُ

الغابة: الأجمة التي طالت ولها أطراف مرتفعة باسقة يقال ليث غابة. الغاب: الأجام والغابة: الأجمة والغابة الأجمة من القصب وقد جعلت جماعة الشجر لأنه مأخوذ من الغيابة.

يقول /بن حمديس:

ككناسٍ بَعَمَتِ غَزْلَانُهُ من زئيرٍ راعِها من أسدٍ غابِ
(ن.م:٦٥)

النَيْلُوفَرُ

هو أنواع كثيرة فمنه أبيض الزهر وأصفر وأحمر وأزرق، ومنه بستاني وبرى ونهري. فالبستاني يصل في قدر تصل الأكل وأعظم، ذو طاقات كطاقات ثمر الصنوبر الكبار. ومن النيلوفر ثلاثة أصناف تعرف بالليله والسامرية، أحدها له لون أصفر ذهبي، في لون النرجس الأصفر، وآخر أزرق اللون وآخر أحمر، وأصول هذه الأنواع الثلاثة يصل. منابتها الرمال وبقرب البحر. وليس يظهر نباتها بالنهار البتة وبالليل تطلع وتنمو إلى أن تزهر ثم تبرز وتنحطم عند تمام مدتها، وهي في هذا كله تطلع إذا أقبل الظلام وتغيب في التراب إذا أقبل ضوء النهار.

يقول /بن حمديس في النيلوفر:

أشرب على بركة نيلوفرٍ مُحَمَّرَةَ النَّوَارِ خَضْرَاءِ
كأنما أزهارها أخرجت ألسنة النار من الماءِ

(م.س:٥)

النَّرْجِسُ

من الرياحين معروف وهو دخيل. نرجس أحسن إذا أعرب، وذكره /بن سيده في الرباعي بالكسر، وذكره في الثلاثي في ترجمة رجب.

ذكر ديوسقوريدس وجالينوس هذا النبات ويسمى باليونانية نركسوس، صفته شبه لون النيرون، وبالسريانية مريث، وبالعربية نرجس وباللطينية بنرجسينوس، وبالعجمية نبقيرس وفلور أور، أي نوار الذهب.

على الرغم من أن هذا النبات ليس عربى الأصل والنشأة إلا أن /بن حمديس يذكره فى ديوانه وكأنه يشير إلى غربته عن بلاده، يذكر النرجس بالتنكير والتعريف فيقول:
وَلَيْلٍ هَوَتْ فِيهِ نُجُومَ كَأَنَّهَا يعاليلُ بحرٍ مُضْمِرَ الْجِزْرِ فِي الْمَدِّ
كَأَنَّ الثَّرِيَا فِيهِ بَاقَةٌ نَرْجِسٍ من الشَّرْقِ يُهْدِيهَا إِلَى مَعْرَبٍ مُهْدِ
(ن.م: ١٥٠)

ويقول:

أذابلُ النَّرْجِسِ فِي مَقْلَتَيْكَ أم ناضرُ الْوَرْدِ عَلَى وَجْنَتَيْكَ
(ن.س: ٣٤٥)

لقد جاء ذكر النرجس أقل من ذكر الورد بكثير فى ديوان /بن حمديس، فلم يتجاوز عشر مرات وردت فيها هذه اللفظة جاء فى أكثرها نكرة وجميعاً، على غير ذكر الورد الذى جاء عشرات مرات. وقد كان ذكر النرجس مرتبط إلى حد بعيد بذكر المرأة والتغزل فيها فى ديوان شاعرنا.

و مما يؤكد اقتران ذكر النرجس بذكر المرأة والتغزل فيها قول الشاعر:

تَزَرَّرُ صَوْنًا عَلَيْهَا الْخُدُورَ فتبكى عيونَ الْمَهَا الْكُنْسِ
وقد زارَ عَذْبَ اللَّمَى فِي الْأَقْحاحِ أجاجُ الدَّمُوعِ مِنَ النَّرْجِسِ
(م.س: ٢٧٨)

فهو يصورها وقد أغلقت على خيمتها وأخذت تبكى وشبه عينيها بالنرجس وشبه الشفاه بالأقحاحى، فالشاعر يذكر النرجس ويذكر الأقحاح ويحملها دلالة المرأة وتشبيه العيون بالنرجس صورة مبتكرة عند الأندلسيين.

المائيات

لقد جاء ذكر المياه عند /بن حمديس ممتزجاً مع مشاعره فى معظم قصائده، وقد لا نبالغ إن قلنا إن ذكر الماء أو ما يدل عليه كان فى كل صفحة من صفحات ديوانه. إن ألفاظ الماء فى ديوان /بن حمديس كثيرة جداً، وقد جاءت تحمل دلالات كثيرة ومتعددة أيضاً. لقد جمع /بن حمديس فى استخدامه للماء وألفاظه بين الاستخدامين المجازى والحقيقى.

فهذا/بن حمديس ينظر إلى الشقائق متأملاً، وعندما رأى الندى يتساقط بين أوراقها يقول:

نَظَرْتُ إِلَى حَسَنِ الرِّيَاضِ وَ غِيْمِهَا جَرَى دَمْعُهُ مِنْهِنَّ فِي أَعْيُنِ الزَّهْرِ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي بَيْنَهَا كَشَقَائِقِي تُبَلِّغُهَا الْأَرْوَاحُ فِي الْقَضْبِ الْخَضِرِ
كَمَا مَشَطَّتْ غَيْدُ الْقِيَانِ شَعُورَهَا وَقَامَتْ لِرَقْصٍ فِي غَلَائِلِهَا الْخُمْرِ
(ن.م: ١٩٢)

فالشاعر في هذه الأبيات يشبه زهرات الشقائق لحظة سقوط الماء عليها بالقيان اللائى يمشطن شعورهن، ثم يرقصن في غلائل حمراء. كما يصور الندى يجرى على الأوراق بالدموع التى تجرى على الخد.

البحر

البحر فى كلام العرب: الشق(ابن منظور، لا تا: ٣٢٣/١) وكلمة البحر تشترك فى معنى لغوى واحد هو السعة والكثرة. وقد استخدم/بن حمديس هذه اللفظة بمعانيها المختلفة عشرات المرات، إضافة إلى أنه قد أفرد فى ديوانه مقطوعات يصف منها البحر. وفيما يلى نماذج توضح ذلك.

و من الإستخدام لكلمة البحر فى شعر/بن حمديس:

وراءك يا بحر لى جنة لبست النعيم بها لا الشقاء
ومن ذلك أيضاً:

أراك ركبت فى الأهوالِ بحراً عظيماً ليس يؤمن من خطوبه
واصعب من ركوب البحر عندى أمور أجاتك إلى ركوبه
(ابن حمديس، ١٩٦٠: ٨)

النهر

النهر واحد الأنهار، وفى المحكم: النهر والنهر من مجارى المياه، والجمع أنهار ونهر ونهور، وفى الحديث نهران كافران، فالمؤمنان النيل والفرات، والكافران دجلة ونهر بلخ ونهر

الماء إذا جرى من الأرض وجعل لنفسه نهرا، نهرت النهر: حفرته. ونهر النهر ينهره: اجراه واستنهر النهر إذا أخذ لمجره موضعا مكينا(ابن منظور، لا تا: ١٩٨).

وقد استخدم/بن حمديس هذه اللفظة مفردا وجمعا فى بضعة مواقع فى ديوانه ومن الإستخدام الحقيقى لهذه اللفظة:

لأصبحت مثل البحر يزخر وحده
وإن كثر الأنهار من عن جوانبه
(ابن حمديس، ١٩٦٠: ٢٧)

اما الإستخدام المجازى فيتضح فى قوله:

وتحسب منه الريح تغدو بضغيم
على جسمه نهى وفى يده نهر
(م: ١٨٣)

نتيجة البحث

فمن خلال هذه الدراسة الشعرية يثبت على القارئ كان شاعرنا العربى القديم شاعر الطبيعة، يتأملها ويبحثها آلامه وينسى عندها أشجانه ويهيم بها ويفتنن بآيات الجمال فيها. فقد عاش العربى فى جزيرة واسعة تختلف عليها الرمال والأنواء والرياح وتشتد عليه الطبيعة وتقسو وكان ينتقل فى سبيل العيش فيجتاز مسافات كبيرة ويخترق صحارى شاسعة وهناك صوراً رسمتها أخيلتهم لكل شئ وقع تحت بصرهم. فالطبيعة طبعت الشاعر الجاهلى بطابعها والشاعر الأندلسى فاق أخيه فى المشرق تأثراً بالطبيعة ومرجع ذلك طبيعة الأندلس هذه الطبيعة الرائعة الخلافة التى عبرت فيها الأرض عم نفسها أجمل تعبير وتميزوا بالإكثار من وصف الأزهار وبصفة عامة الطبيعة التى أظهر الشاعران /امرؤ القيس و/بن حمديس فى شعرهما وتطرقا إليها كانت مظاهراً أدركهما فى الواقع وأثر عليهما ودفعهما بإظهار أحاسيسهما.

المصادر والمراجع

- ابن حمديس الصقلي. ١٩٦٠م، ديوان ابن حمديس، تحقيق الدكتور محمد عباس، بيروت: دار صادر.
- امرؤالقيس، ابن حجر الكندي. ٢٠٠٤م، ديوان، اعتنى به وشرحه عبدالرحمن المصطاوي، ط ٢، بيروت: دار المعرفة.
- بيومي، محمد. ١٩٩٦م، تربية الذوق الجمالي، مصر: دار المعارف.
- الجمحي، محمد بن سلام. لا تا، طبقات فحول الشعراء، شرح محمود شاكر، القاهرة: مطبعة المدني.
- الحاوي، ايليا. ١٩٨٧م، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، ط ٢، بيروت: منشورات دار الكتاب اللبناني.
- رشدى، على حسن. ١٩٨٨م، الطبيعة في العصر العباسي الثاني، بيروت: مؤسسة الرسالة - دار عمار.
- سيد نوفل. ١٩٩٣م، الطبيعة في الأدب العربي، ط ١، مصر: دار المعارف.
- الشكعة، مصطفى. لا تا، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، بيروت: دار العلم للملايين.
- ضيف، شوقي. ١٩٧٤م، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، ط ١، مصر: دار المعارف.
- طرفة بن العبد. ١٩٩٥م، الديوان، شرح وتحقيق محمد محمود، ط ١، بيروت: دار الفكر اللبناني.
- عتيق، عبدالعزيز. لا تا، الأدب العربي في الأندلس، بيروت: دار النهضة العربية.
- عيسى، فوزى سعد. لا تا، الشعر العربي في صقلية، الاسكندرية: المعارف.
- موافى، عثمان. ١٩٧٥م، من قضايا الشعر والنثر في النقد الأدبي القديم، الاسكندرية: مؤسسة الثقافية الجامعية.